

تعودوا أن يروني في الأيام الأخيرة، فقد ذهب عني الذهول، وفارقني الوجود، واستقرت عيناى وهدأتا واستقامتا، فليستا تضطربان ولا تقدحان الشرر أو ما يشبه الشرر، ولا تنظران هذه النظرات التي كانت تخيف منى وتثير في النفوس من حولى شكًا وريبًا وإشفاقًا، عدت إلى هدوء غير مألوف، وانطلق لسانى بالحديث، بل تردد الابتسام على شفتيّ، وأخذ الإشراق يترقق في وجهى من حين إلى حين، حتى لم يشك أحد في أن هذا الفرح الطارئ قد شفانى مما كنت أجد، وردّ إليّ ما كان قد فارقنى من اعتدال المزاج. ثم نُصبح وإذا الزائرون قد أقبلوا، وإذا النشاط المبتسم السعيد يملأ الدار جميعًا، وإذا أنا أشارك من حولى في مظاهر ما يجدون من فرح وبهجة، وأنفرد وحدي بلوعة لا تنقضى وحزن لا تخمد ناره.

يا لقوة النساء! لقد أمنت منذ ذلك الوقت بأنها لا حدّ لها. يا لمكر النساء! لقد أمنت منذ ذلك الوقت بأنه لا آخر له ولا قرار، يا لقدرة النساء على الكيد وبراعتهن في التلوين ونهوضهن بأثقل الأعباء وثباتهن لأفدح الخطوب!

لقد أكبرت نفسى، بل أكبرت المرأة في نفسى حين رأيتهنى أضطرب في هذا التمثيل وكأنى أضطرب في الحياة الواقعة لا يأخذنى أحدٌ ولا أخذ نفسى بتصنع أو تكلف أو محاولة، وإنما أنا أكذب وأنافق وأصطنع الرياء وأخفى ما أخفى وأظهر ما أظهر في سهولة ويسر، كما أتنفس وكما أفتح عيني وأغمضها، وكما آتى ما تدفعنى الغريزة إلى أن آتى به من الحركات! ومع ذلك فبعض ما عرض لى من الخطب، وبعض ما ألم بى من الهم كان خليفًا أن يحول بينى وبين الحياة فضلًا عن الحياة الهادئة المطمئنة، فضلًا عن هذه الحياة المضاعفة التي يملؤها الكذب ويجري فيها من الرياء كما يجري الماء في الغصن الرطب.